شَرْحُ كِتابِ الرِّقاق

مِن صَحيحِ البُخارِي

أ. أناهيد السميري

اللقاء الأول

ألقي في ١ رمضان ١٤٣٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

http://tafaregdroos.blogspot.com/#!/

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

http://www.muslimat.net/

- الكمال لله عزّ وجلّ، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله. .

والله الموفق لما يحب ويرضى.

ما تم دراسته:

- منزلة صحيح البخاري عند المسلمين.
- معنى الرقاق.

١) بَابٌ: الصحة والفراغ ولاَ عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ.

٢) بَابُ مَثَلِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الأول من سلسلة لقاءات شرح صحيح البخاري في كتاب الرقاق.

مكانة الكتاب:

وكما هو معلوم أن صحيح البخاري عمدة المسلمين في حديث النبي صلى الله عليه وسلم رغم أنوف من يشكك فيه، وهو أصحّ كتاب بعد كتاب الله عزّ وجلّ، جمع فيه البخاري ما صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم بشروط يعلمها أهل الحديث.

كتاب صحيح البخاري مكوّن من مجموعة كتب، ابتدأ بكتاب بدء الوحي وانتهى بكتاب التوحيد، مجموعة الكتب عنوان تحته أحاديث في الموضوع الذي عنون له، ثم تحت كل كتاب مجموعة أبواب.

يعني كتاب صحيح البخاري تحته كتاب الرقاق تحت كتاب الرقاق مجموعة أبواب، عنون لكل باب بما يناسب الفوائد المستخرجة من نفس الحديث.

واختيارنا في هذه الدراسة حول كتاب الرقاق، وهو مناسب لهذا الزمن الذي نحن فيه –شهر رمضان– .

معنى الرقاق:

الرقاق: من الرقة ، جمع رقيقة، ويقصد بها هذه الأحاديث التي ستسمعها تُحدث في القلب رّقة.

ونحن نحتاج في هذه الأيام وقت العبادات أن يكون في قلوبنا رقّة، والرقة لها سبب سنتصوره الآن مع البخاري، وأهم أسبابها ستتبيّن من خلال الأحاديث (تصور حقيقة الدنيا عند الله وتصور حقيقة الرحلة التي نعيشها).

ولذلك لما نقرأ في مطلع سورة البقرة نجد وصف المتقين أنهم إجمالًا مؤمنون بالغيب وخصوصًا بالآخرة يوقنون، لم خصوصًا بالآخرة رغم أن الآخرة من ضمن الإيمان بالغيب لكن الله عزّ وجلّ بدأ أوصافهم بأنهم مؤمنون بالغيب وانتهى أنهم بالآخرة يوقنون السبب تام الوضوح أن من يتيقن بالآخرة يرق قلبه فيسعى في الدنيا وهو يفهم ما هو المطلوب منه فلا يطمع في الدنيا، من تيقن بالدنيا تيقن قلبه وانصرف جهده إلى عمل الآخرة، ضعف هذا الأمر معناه ضعف الإيمان وضعف الإيمان معناه قسوة القلب ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1].

المقصد أن قسوة القلب أكيد سببها طول الأمد والانشغال بالدنيا والبعد عن تصور المقصود من الحياة الدنيا وتصور ما يجب أن نكون عليه يكون نهايتها قسوة القلب وعدم رقته.

إذن الرقاق جمع كلمة رقة، والرقة هي الرحمة وضد الغلظة، ويقال إذا كانت الرقة في جسم أفسدته ومتى كانت في نفس (قلب) أصلحتها.

[1] سورة الحديد

نبدأ بالكتاب.. قال:

كِتَاب الرِّقَاقِ

بَاب لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ

حَدَّثَنَا الْمَكِّيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ هُوَ ابْنُ أَبِي هِنْدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ)).

قَالَ عَبَّاسٌ الْعَنْبَرِيُّ حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ عِيسَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِنْدٍ عَنْ أَبِيهِ سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَهُ.

"نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ"

◄ النعمتان هما الصحة والفراغ.

◄ مغبون يعني كثير من الناس ينعم عليهم بنعمة الصحة والفراغ فيكون حالهم أنهم لا ينتفعون بها كما ينبغي، وهذا يعتمد على ما مضى ذكره من جهة عدم الإيمان أو ضعف الإيمان.

الصحة:

من فضل الله عزّ وجلّ على خلقه أن يمدّهم بصحة يستطيعون بها أن يمارسوا في حياتهم ما تشتهيه نفوسهم أو ترغبه، وهذه الصحة من أعظم النعم التي أعطاها الله عزّ وجلّ للخلق، ومع الصحة يعطيك كل شيء، ومع عدم وجود الصحة حتى الماء البارد لا طعم له، فلما يجتمع للإنسان صحة ويجتمع له الفراغ..

الفراغ:

بمعنى أنه في الدنيا قد كفل له دنياه، كثير من النساء خاصة قد كفلت لهم دنياهم بأي شيء، برجالهم الذين يعملون، أو كفلت لهم دنياهم بالخدم الموجودين في البيت، أو كفلت لهم دنياهم بقلة طلبات الرجل، أو كفلت لهم دنياهم أنهم لم يقدر لهم أن يتزوجوا فيكونوا مسؤولين، فسواء كان في بداية الحياة أو منتصفها أو في متقدمها معناه أن الإنسان قد وفرت له الدنيا من غير جهدٍ يذهب بنفسه، يعني من أجل أن يحقق الدنيا لن تذهب قواه، من أجل أن يحصّل الدنيا الأمر يسير، لن تذهب كل قواه من أجل تحصيل الدنيا، لن تجده ساعي طوال النهار بحيث أنه في نهاية اليوم لا يستطيع أن يحرك ساكنًا؛ قد وفر له الفراغ.

الفراغ أن الله قدّر أن تصل الدنيا إلى صاحبها يسيرة بأي صورة، بميراث، بزوج ينفق، بمال يأتي من الدولة أو الحكومة، ما هو المطلوب منك؟ لا تشقي نفسك في الدنيا، لما يكون معك فراغ لا يكون خطأك طلب الاستكثار على أن طلب الاستكثار هذا هو الطموح! المفروض تكون الباقيات الصالحات في نفوسنا خيرٌ أملا، يعني هي التي أتأملها وأنتظرها وأرجو من الله عزّ وجلّ أن يجعلني من أهلها.

أين تقع الأزمة؟ الأزمة تقع عند كثير من الناس أنهم يريدون أن يستكثروا، يعني لا يكفيهم ما يملكون إنما دائمًا هناك طمع في الدنيا ويسمى هذا الطمع طموح! ومن هنا تأتي علّة الناس أنهم لا يعرفون ما هو الطموح الصحيح، أنت قد كفل لك رزقك فبقي أن تفكر في الشيء الذي لم تخبر أنه كفل لك.

شأن الدنيا والأرزاق التي فيها قد أخبرنا أننا قد كفلت لنا، وأن الله عزّ وجلّ قد قسمها، أما شأن الآخرة مواضعنا من حيث نجاتنا من النار ودخولنا إلى الجنة نسأل الله من فضله لم نخبر بأن الأمر كفل لنا، فالمعنى أن هذا الأمر الذي يجب أن يشغلنا في مقابل أن الدنيا قد كفلها الله عزّ وجلّ لنا.

تأتي دائمًا شائبة عند كثير من الناس أنه معنى ذلك أنا لا أسعى إلى الدنيا ولا لطلب الرزق؟! لا، لسببين مهمين:

◄ السبب الأول: أننا قد فُطرنا للسعي إلى مصالحنا، لا أحد فينا يتمكن في فطرته الأساسية أن يترك السعي لدنياه، هو خلق بهذه الطريقة، كما خلقت الطير بأنه قد هداها الله عزّ وجلّ لبناء العش، وأنه قد هداها الله عزّ وجلّ لسعيها أن تبحث عن طعامها، فأصبح سعي في الدنيا شأن معلوم لا يمكن للفطر أن تنكره.

◄ السبب الثاني: أننا نقول مادام رزقنا مكتوب فما هو المطلوب؟ الله عزّ وجلّ حبس الأرزاق وراء الأسباب وأمرنا أن نأخذ بالأسباب واختبارنا في مقاصدنا ماذا سنأخذ من أسباب، فكل سبب وكل مقصود له طريقين، الله عزّ وجلّ يقدر لك المقصود ثم أنت تسير في الطريق، إذا اخترت طريق الحق أي اليمين وكتبه الله عزّ وجلّ لك، ستصل إلى الذي كتب لك وفي نفس الوقت ترضي ربك بسيرك في اليمين، ولو كُتب لك لكن سرت على اليسار على ما يغضب الله ستصل إلى ما كُتب لك لكنك قد أغضبت الله.

إذن معنى ذلك لا يمكن أن نقول أن السعي للأرزاق أمر ليس مطلوب شرعًا ولا يمكن أغفل أن الله قد كتب الأرزاق، لابد أن أقصد الأمرين معًا ولذلك ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[٢] يعني إن فاتك فقد تيقنت أنه لم يكتب لك أصلًا، وإن وجدته فلا تفرح فرح الأشر والبطر الذي يجعلك تنسى أن الله أصلًا قدره لك، مادام الأشياء مقدره أين اختباري؟ اختبارك فقط من أي طريق تسعى.

إذن هذا قد كفل لك وفي أثناء وصولك لمرادك تُختبر، بقي غير المعلوم بالنسبة لك منزلتك عند الله فهذا الذي يشغلك أكثر مما يشغلك دنياك لأن دنياك قد حسم لك أنها مكفولة وأنها ستصلك ولا أحد يستطيع أن ينزع لقمة قد قدرت لك.

إذن الصحة والفراغ نعمتان أنعم الله عزّ وجلّ بهما على الخلق المفروض أن العبد ماذا يفعل فيهما؟

يغتنمهما ليس من أجل الدنيا إنما يغتنمهما من أجل الآخرة.

وقد يسلب أحد هاتين النعمتين ولا يكون فارغًا بمعنى لا يكون مكفيًا مؤونة الدنيا إنما يجد نفسه مضطر أن يعمل أعمالًا كثيرة من أجل أن يحصّل ما يعيش به في دنياه، والله عزّ وجلّ يقسم بين خلقه أرزاقه كما شاء، لكن هذا له باب آخر في الوصول إلى ربه وهو قوة الاحتساب على الله عزّ وجلّ والرضا بما قسم الله.

---

[٢] سورة الحديد

نتكلم على من أنعم الله عليه بنعمة الصحة والفراغ المطلوب أن يحذر أن يغبن هاتين النعمتين، ما معنى أن يغبن؟ يخسر، فالغبن ضد الفوز والفلاح والنجاح فكثير من الناس مغبون في هاتين النعمتين يعني خسران لها، فنجد الناس بأنفسهم ينطقون أنهم يريدون أعمالًا تقتل أوقاتهم، بألسنتهم ينطقون أنهم يريدون أن يخرجوا من هذا الفراغ الذي هم فيه بتسالي وبألعاب! بأمور لا تنفع المرء لا في دينه ولا في دنياه!

معنى ذلك أن هذه حقيقة قررها النبي صلى الله عليه وسلم: "نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ".

ما الذي يعيننا على أن لا نغبن فيها ولا يغبن فيها الناس؟ يعني ماذا أعلّم الناس من أجل أن يبتعدوا عن الغبن؟

أول أمر علينا أن نعلم أن الله عزّ وجلّ خلق الخلق من غير ضرورة إليهم، ليس محتاج إلى أحد من خلقه، وبدأهم بالنعم الجليلة من غير استحقاق منهم لها، ابتدأنا بالنعم فمنّ عليهم بصحة الأجسام وسلامة العقول وضمن لهم أرزاقهم، وضاعف لهم حسناتهم، ولم يضاعف لهم سيئاتهم، وأمرهم أن يعيشوا في الحياة ليعرفوه فيعبدوه.

إذن كيف نخرج من الغبن؟ أولًا بصحة اعتقادي، اعتقادي هذا هو أساس تفكيري، وأول علّة الناس يعيشوها كيف يفكرون في الأشياء، فأول الاعتقاد أن الله عزّ وجلّ خلق الخلق وهو ليس محتاج لهم ولما خلقهم ومتعهم بالنعم وابتدأهم بها أراهم ما يتمتعون به في نفوسهم من جهة الاستدلال يعني أعطاهم عقول وجعل حولهم الأدلة الكثيرة التي يستطيعون بها أن يصلوا إلى ربهم ويتمتعون بالتفكير.

المؤمن الذي يعرف صفات ربه ويرى آثارها في الأشياء يتمتع لما يزداد أدلة على عظمة الله، على قدرة الله، على حلم الله، على رحمة الله، على ستر الله، انظر كيف تُدهشون لما تسمعون قصة من القصص ظهر فيها عظمة الله عزّ وجلّ في إنجاء عبد، مثلًا ترى حادث وتتيقّن أنه لن يخرج إلا ميتًا ثم يخرج حيًا يسير على قدميه! ماذا يحصل في نفسك؟ تحصل حالة من المتعة، هذه المتعة المفروض نردها إلى أصلها، يعني إن كنا نحن مغبونين سنردها إلى أصلها وهو زيادة الأدلة اليقينية أن الأمر أمر الله وأن الحفظ من الله وأن الله على كل شيء قدير وهكذا.

لما يأتيك أخبار عن الفلك ويقولون لك أن في السماء ملايين النجوم يمكن لا تعد ولا تحصى وأنهم عدوا في مجرة كذا وكذا من الملايين، فهذا الخبر ماذا يفعل في نفسك؟ أولًا تشعر بالدهشة، هذه الدهشة فيها متعة وهذه المتعة علينا أن نصل إلى نهايتها ونهايتها هو زيادة اليقين بقدرة الله، بعلم الله، برحمة الله، كل أمر على ما يدل عليه، ودائمًا هذا الشيء يدهشنا.

تمر مثلًا على السور وقد بنى بيته في مكان لا يتصور فتري كيف هداه الله عزّ وجلّ لهذا و كيف نظمه هذا النظام، أو تمر على أرض صخرة أو رصيف بنوه الناس ثم تجدين نبتة تخرج من هذا الرصيف فتقولين سبحان الله، الله على كل شيء قدير يخرج هذا من أضيق الأماكن ويخرج الإنسان من أضيق الكروب، وهكذا ينتفع الإنسان مما وهبه الله من الصحة والفراغ.

المقصود شكر الله عزّ وجلّ على النعم الظاهرة والباطنة، ما أعجب هذا الباب لنا، بمعنى أننا وضعنا قضية في أصل التفكير أن الله لما خلقنا لم يكن محتاج إلينا تعالى الله أن يحتاج إلى أي أحد بل هو الغني غنى مطلق وأنعم علينا تفضلًا منه ورزقنا الصحة والعقول وسلم لنا أبداننا وعقولنا وخلق حولنا ما يدلنا عليه، ثم يجب علينا شكره على ابتداء الخلق

وعلى النعم الأصلية وعلى النعم الدارة المستمرة، كل العبادة عبارة عن شكر، فهذا الشكر من أجل حصوله لابد أن النفس تنهض لمعرفة ما أعطيت —ماذا أعطاها ربنا— فالله عزّ وجلّ جعل حولنا أدلة على ما أعطانا عليه..

ها نحن نكسل ثم يقوينا الله، ها نحن نعجز ثم يقدرنا الله، هذا كله يجعلنا دائمًا متذكرين أن الله هو الذي وهبنا، الله هو الذي أعطانا فيحصل الشكر كما ينبغي.

الأمر الثاني: أن الله عزّ وجلّ جعل شكره ليس مجرد فعل بالبدن إنما جعل أصل شكره عمل بالقلب فإذا عمل قلبك تمتعت بالعبادات، أصبح لها روح، وعمل القلب مبدؤه معرفة الله.

إذن بماذا سأشغل صحتي وفراغي؟

بإشغال عمل القلب، وأهم جهد سيعمله القلب والبدن معًا هو طلب معرفة الله من الكتاب والسنة المصدران من جهة والكون حولنا هذه الآية البديعة العظيمة، الآيات المتكررة التي تدور حولنا.

ولذلك كان من صفة أهل الإيمان يقولون كما في أواخر آل عمران: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾[٣] بعدما كانوا يتفكرون في خلق السماوات والأرض فيخرجون بهذه النتيجة، وهكذا تعبد وأنت مستمتع، لأن هذا التفكر فيه من الدهشة وفيه من النتائج ما فيه فيصبح السجود بالقلب قبل البدن ويصبح السجود مشاعر الشكر ظاهرة فيه.

فأول ما يُشكل على الناس كون أنهم يظنون أن صحتهم وفراغهم وهبا لهما من أجل أن يشغلاهما في الدنيا، وكل واحد يكسل عن شأن في الدنيا يقول لصاحبه أنت كسلان لكن لما يكسل عن شأن في الآخرة يقول: "لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها" سبحان الله! وهكذا يفسد التفكير، فكأنا وهبنا هذه الصحة وهذا الفراغ لمجرد الاستكثار والاستكثار، لذلك تجد ناس الله كفل لهم أرزاقهم وهم ليسوا راضيين أن يستغلوا قدراتهم في طاعة الله ويأتون الناس حولهم يقولون أنتم عالة على المجتمع، أنتم كذا وكذا أي أنهم كفلت أرزاقهم وأنهم لا يعملون، فتجده يدخل مشروع فيفشل والثاني فيفشل والثالث فيفشل وقد كفل الله له الأمر!

فإذن المشروع الحقيقي الذي تعيش من أجله اطلب العلم وتعلم عن الله، والله عزّ وجلّ يعطي العباد من البركة في أرزاقهم وصحتهم أضعاف ما يسيل في أيديهم من سيولات ومال أضعافها الصحة والفراغ الذي يبارك الله عزّ وجلّ فيهما فينتفع الخلق والحمدلله على ما أنعم علينا.

على كل حال لابد أن نذكر أنفسنا أن الله أمرنا بمعرفته ثم أمرنا بعبادته، ولما أمرنا بعبادته العبادة أمر يسير جدًا على من عرف حقيقة الدنيا وحقيقة ما أعطاه الله عزّ وجلّ، جعل الله مدة الطاعة في الدنيا قصيرة، إذا أطعت في الدنيا مثلا عمرك ٧٠ أو ٨٠ عام تعتبر قصيرة بالنسبة لما ستجده من خلود في جنات النعيم، لما تجده من نعيم في الحياة البرزخية، فهذا التصور يجعل الإنسان يقول صحة وفراغ في زمن قصير لنعيمٍ في زمن طويل بل في زمن أبدي!

ولذلك غبن الناس في صحتهم وفراغهم؛ لأن صحتهم وفراغهم كانت تنفعهم في زمن قصير يستفيدوا منها للزمن الطويل.

---

[٣] سورة آل عمران: ١٩٠

نختم هذا الحديث فنقول: كثير ممن غُبن في صحته وفراغه يظهر غبنه في هذا الشهر الكريم في كون الناس يعتقدون أن نهارهم للصيام والامتناع عن الممنوعات ثم ما أن يفطروا إلا تجدهم دخلوا في الممنوعات، يعني ما دخلوا في المباحات من أكل وشرب إنما دخلوا في الممنوعات من جهة تصورهم أنهم قاموا بما يجب في النهار، والليل هذا حقهم!

فيطلقون أبصارهم في المحرمات وينظرون إلى ما منع الله وكيف تدخل إلى عقولهم المفسدات ثم يأتون يستقطعون من وقت صلاة التروايح، يصلون الحمدلله ثم يعودون فيرون أنه من بعد صلاة التراويح إلى الفجر عودة مرة أخرى أنه فعلنا ما يجب علينا!

وهذا من الغبن لأن الإنسان ليس فقط لا يضمن أن يعيش السنة القادمة، إنما يأتي الأمر المهم هل الأمر السنة القادمة سيكون قلبك ملك لك أم يكون قد انقلب عليك من كثرة ما تغذية من المفسدات؟!

الإنسان لا يضمن قلبه يريد أن يستكثر من الطاعات والحسنات ولا يخرج مغبونًا من أجل أن كثرة الطاعات والحسنات أول أثر لها زيادة الإيمان، زيادة الإيمان يعني كشف هذه الحجب التي يشعر بها الناس بينهم وبين يوم القيامة، متى أصل أن أعبد الله كأني أراه؟ كلما زدت طاعة وعبادة كلما انكشف عن القلب الحجب، فأقف في الصلاة أعبده كأني أراه، لكن طالما أن الإنسان يثقل على نفسه ويثقل على نفسه بالمعاصي فتجد أن القلوب مهما نزل فيها العبادات التي هي أثر الإيمان وقد امتلأت معاصي حجبت المعاصي ما يقع من آثار الإيمان.

قلبك هو الإناء الذي يقع فيه أثر الطاعات، يعني تطيع الله فأول شيء تجده الإيمان أن يزيد إيمانك، لما أجعل هذا القلب فيه مانع وهو كثرة المعاصي.

كثرة المعاصي ماذا تفعل؟ تمنع أثر الطاعات على القلب، يعني سيصبح القلب كالكوز المجخية كالكوب المائلة تعبد تعبد لا تدخل فيه آثار الإيمان.

والإيمان ماذا يفعل؟ الإيمان يكشف عني الحجب، ما معنى أن يكشف عني الحجب؟ أنت بينك وبين الغيب كل هذه الدنيا التي أغلقت عليك مشاعر أن تقف في الصلاة فتعبد الله كأنك تراه، تصوم فتمتنع عن الطعام والشراب كأنك ترى الله وهو راضي عنك، كأنك ترغب في أن يرضى عنك، تشعر أنه ينظر إليك فتصل أن تعبد الله كأنك تراه وإذا لم تكن تراه فتؤمن أنه يراك.

الإيمان قوة التصديق اليقيني أن الله يرانا ويكتب أجورنا ويثني علينا عنده سبحانه وتعالى، فهذا يغيب في وسط الزحام وما الناس فيه من تكاثر على الدنيا وحب لها، فالأعمال الصالحة المتوقع من ورائها أن يزيد الإيمان، لكن متى؟ لما يكون الكوب الذي هو قلبي معتدل وليس مائل كالكوز المجخيا، لكن ما الذي يجعله مائلًا؟

ورد في الحديث: "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، -إلى أن نصل إلى القلب الأسود- وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مِرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا"[٤] مهما زادت عليه الطاعات فهو يخرجها في الخارج أي لا يجد أثرًا في الطاعة، يعني لا يجد أثرًا من الطاعة.

---

[٤] رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

لننظر لأنفسنا لما يبدأ شوال يظهر المقياس، صحيح أننا لم نكن على نفس الدرجة من الروحانية لكن لا نصل إلى حد أن ننام عن الصلوات! لا نصل حد إلى أن الناس يفرطون في أصول دينهم، كيف وأنت المفروض تخرج وقد زدت إيمانًا! قد امتلأت بالإيمان! لكن نجد أنفسنا مثل هذا الحديث قد غبنا في كثير من الأوقات واستعمل الإنسان بدنه في الشهوات فغبن في الصحة والفراغ.

نسأل الله أن يحفظنا جميعًا والمسلمين لما نفهم الآيات التي أتت في سورة الحديد في المنافقين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[٥] "فتنتم أنفسكم" قيل في معناها استعملتم أنفسكم في المعاصي، استعملتم ما رزقكم الله في المعاصي، صحتكم وقوتكم استعملتوها في المعاصي، فيكون نتيجة هذا أن يكون الإنسان ممن غبن في الدنيا وفي الصحة والفراغ التي وهبها الله عزّ وجلّ.

وقد ورد في الحديث: "مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ إِلا نَدِمَ"، قَالُوا: وَمَا نَدَامَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "إِنْ كَانَ مُحْسِنًا نَدِمَ أَنْ لا يَكُونَ ازْدَادَ ، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا نَدِمَ أَنْ لا يَكُونَ نَزَعَ"[٦] أي ترك وتاب.

نأتي إلى باقي الحديث وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَهْ"

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ عَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَهْ فَأَصْلِحْ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ)).

هذا الحديث كما ترون جمعه البخاري مع ما قبله:

باب "الصحة والفراغ" و "لا عيش إلا عيش الآخرة" جمع بين الحديثين:

١. الصحة والفراغ: "نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ"

٢. و"اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَهْ"

اتفقنا أن البخاري كتاب وتحته كتب وتحته أبواب والأبواب لها أسماء يظهر فيها فقه البخاري وتحته أحاديث فهنا ذكر حديثين.

"اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَهْ" معناه أن العيش الحقيقي هو عيش الآخرة، أما الدنيا فما فيها إلا الذوق، أنت هنا في الدنيا ما أنت إلا ذائق لست في حقيقتك عايش، فالعيش الحقيقي هو عيش الآخرة.

نقابل الحديث الذي مضى: "نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ" كيف سنجمع بينهما؟

الجمع واضح تام الوضوح؛ يعني لا تغبن نفسك بأن تنفق صحتك وفراغك على الدنيا، الدنيا لا تستحق منك أن تنفق صحتك وقوتك التي وهبك الله إياها لطاعته وفراغك، أي أن الله جعل لك زمنًا تستطيع أن تقوم فيه بالطاعات من أجل أن تعيش في الدنيا، الدنيا لا عيش فيها العيش الحقيقي، لا عيش إلا عيش الآخرة، لكن والدنيا؟

---

[٥] سورة الحديد: ١٤

[٦] رواه الترمذي في سننه وقال: هَذَا حَدِيثٌ إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ هَذَا الوَجْهِ، وَيَحْيَى بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ قَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ شُعْبَةُ، وَهُوَ: يَحْيَى بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مَوْهَبٍ مَدَنِيٌّ

الدنيا مجرد ذوق وهذه إشارة إلى تصغير شأن الدنيا، يعني الدنيا لا تستحق منك أن تبذل جهدك وتقطع صحتك من أجلها إنما الدنيا أتت مزرعة للآخرة، تزرع صحتك وفراغك للآخرة.

فالنبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الثاني: ينبهنا على تصغير شأن الدنيا وأن الدنيا صفتها أنها حقيرة لدرجة أنها لا تعتبر حتى أنها عيش، وأن لذاتها مكدرة وأنها سريعة الفناء، كل هذه إشارات واضحة وصريحة.

وإذا كان هذا شأن الدنيا لا معنى للانشغال بها! مادام هذا كله وصفها أنها سريعة الانقضاء ولذاتها لا تبقى ولذاتها بنفسها مكدرة، فإذا كانت سريعة الفناء بهذه الطريقة ولذاتها مكدرة إذن لا تشتغل بها! اشتغل باللذات التي ستستقبلها لا كدر فيها، متى سأحصل هذه اللذات التي لا كدر فيها؟

لما أعيش للآخرة، لما أستعمل صحتي وفراغي للآخرة، هناك ستجد ما تشتهيه الأعين وتلذ به النفوس.

هناك رواية أخرى للحديث ذكرها البخاري رحمه الله:

حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ الْمِقْدَامِ حَدَّثَنَا الْفُضَيْلُ بْنُ سُلَيْمَانَ حَدَّثَنَا أَبُو حَازِمٍ حَدَّثَنَا سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ السَّاعِدِيُّ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْخَنْدَقِ وَهُوَ يَحْفِرُ وَنَحْنُ نَنْقُلُ التُّرَابَ وَبَصُرَ بِنَا فَقَالَ: ((اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ)).

وهذا يفهمك الجزء الثاني من كلام النبي صلى الله عليه وسلم "فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ" أنهم كانوا يشاركونه في غزوة الخندق وكأنه يذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن الدنيا لا تستحق البذل إنما ما عندك من صحة وفراغ فاغتنمه لعيش الآخرة.

نأتي الآن للباب الثاني:

بَاب مَثَلِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ إِلَى قوله: ﴿مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ سَهْلٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)).

نقرأ الآية ثم نعيد الحديث مرة أخرى لنفهمه بالإجمال ثم نجمعه مع العنوان.. العنوان يقول: "بَاب مَثَلِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ" يعني كم تساوي الدنيا في الآخرة؟ ثم أتى بحديث سهل الذي فيه: "مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا" كأن هذه الدنيا ومقدارها في الآخرة، نبتدئ أولًا بسورة الحديد وبعد ذلك نجمع بينها وبين الحديث.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

وصفت الدنيا بخمسة أوصاف بل وأتى عليها الحصر:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ هنا حصر، أي فقط لا شيء آخر فيها لمن عاش في الدنيا.

١. لَعِبٌ
٢. وَلَهْوٌ
٣. وَزِينَةٌ
٤. وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ
٥. وَتَكَاثُرٌ

يعني هذه كل الحياة الدنيا الناس يلعبون بأبدانهم ويلهون بقلوبهم

بمعنى لما تحقق كثير من أعمال الناس في دنياهم تجد في النهاية هذا الذي يصرون عليه ويلزمون أنفسهم به إنما هو مجرد لعب لا قيمة له، وهذا اللعب يقابله لهو بقلوبهم، يلهون عن شيء مهم.

الالتهاء معناه الانشغال عن حق إلى باطل، فهم في الدنيا **يلعبون** بأبدانهم ويلهون عن حقٍ إلى باطل هذا اللهو.

ثم تجدهم في غالب شأنهم **يتزينون** بها، فإذا ذهب أثرها أصبح لا طعم لها، بمعنى أن كثير من الناس يتزين بأشياء اليوم غدًا يرى أنها ليس لها طعم، وكثير من الناس ينتقد بعضهم بعضا في ذوقه في هذه الزينة، الدنيا كلها مثل هذا، ما اليوم يفتخرون به أنه زينة غدًا يرونه لا شيء.

إذن الدنيا عبارة عن لعب بالأبدان ولهو بالقلوب وتزيين، ثم لما يرى بعضهم بعضًا يتزين ماذا يفعلون الخطوة التي بعدها؟ **يتفاخروا** على بعضهم، يعني كثير من الأشياء الناس لا يعملوها في الدنيا إلا لمجرد أن يفخر على غيره بها.

ثم يأتي الأمر الأشد أن من الطمع أن الإنسان لا يكفيه الشيء الواحد إنما **يتكاثر** ويتكاثر حتى يفسد نفسه في التكثير في الدنيا، أكثر وأكثر حتى يفسد نفسه في ذلك، الله عزّ وجلّ وضح صورة الدنيا في نفس السياق فضرب لنا مثلًا:

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ الغيث بمعنى المطر

﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ يعني نبت، والكفار بمعنى الزراع، أو الكفار بمعنى الذين لا يؤمنون بالآخرة، أعجبوا به وإذا أعجبوا به ماذا يفعلون؟ الإعجاب يجعل الإنسان يطمع ويطمع ويجعل همّه كله في هذا المطموع.

ثم هذا الذي أحبوه واهتموا به وصرفوا غالب شأنهم وقوتهم وصحتهم له ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ يعني تأتي عليه من الأحوال ما تجعله يذبل ويخرب ويبس بمعنى يصبح لا فائدة منه.

ثم في الآخرة ماذا يحصل؟ لن تترك في الآخرة، في الدنيا تتزين به وتتعلق به ثم في الآخرة يصبح لا قيمة له لمجرد أنك أنت تزول عنه أو هو يزول عنك.

لما وصفت الدنيا بهذه الأوصاف أنها تزول أو أنت تزول عنها وتكون بها فرحًا ثم تصبح لا شيء في حقك وصف النبي صلى الله عليه وسلم الآخرة، والبخاري جمع بين الاثنين، قال: مثل الدنيا في الآخرة، ماذا تساوي الدنيا في الآخرة، فلما وصفت الدنيا من آية الحديد إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ ما معنى متاع الغرور؟

كأن مشتري ذهب إلى السوق أراد أن يشتري لنفسه حاجه يتمتع بها فدفع ماله وربطوا له حاجته في كيس، أتى بها إلى بيته ففتح متاعه الذي يتمتع فوجد أنه قد غشّ! غروه وغشوه!

فهذا بالضبط حال الإنسان يعيش كل الدنيا وهو يضع في كيسه على أنه وقت الحاجة ينفعه ثم يأتي لحظة القبر فيفتش كيسه هذا فيجد متاعه متاع الغرور! قد غرّ في كل حياته التي جمعها ليس معه ما ينفعه! فهذه الدنيا متاع الغرور.

في المقابل في حديث سهل "مَوْضِعُ سَوْطٍ" السوط هذا الذي نعرفه كأنه يقصد به السوط الذي في غاية الرقة، رقيق جدًا، يعني لا يأخذ مساحة كبيرة.

"مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا" من كل الدنيا وما فيها.

النبي صلى الله عليه وسلم جعل موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم "وَلَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا" يعني من غدا في سبيل الله أو راح في الدنيا وأراد بغدوته أو روحته الآخرة ماذا سيكون حاله عند الله؟ غدوته فقط في سبيل الله أو روحته في سبيل الله خير من الدنيا.

فهذا دليل على هوان الدنيا عند الله عزّ وجلّ، ألا ترى أنها لا يرضاها دار جزاء لأوليائه ولا يرضى الدنيا نقمة لأعدائه إنما كما وصف سبحانه وتعالى لعب ولهو وزينة.

وقد روى الترمذي حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَا يَرْجِعُ "[٧]، يعني الدنيا كلها بالنسبة للآخرة مثلما يجعل أحدكم أصبعه في اليم ويخرجه ماذا يبقى في أصبعه؟ ولا شيء، هكذا الدنيا بالنسبة للآخرة.

و ورد في الحديث: "لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ"[٨].

بهذا نكون انتهينا من جلستنا اليوم ..

والحمدلله رب العالمين.

[٧] رواه مسلم في صحيحه.

[٨] رواه الترمذي في سننه وقال هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ.